المعتزلة والعقل الإسلامى

العقل والتعقل:

قسم العقاد فى كتابه «التفكير فريضة إسلامية» عقل الإنسان إلى العقل الوازع، والحكيم، والمدرك، والرشيد.. ..وفى القرآن الكريم:

- «وما يعقلها إلا العالمون» العنكبوت(43)..

قرن التعقل بالعلم..

- «تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون» الحشر(14)..

نسب الشقاق، والفرقة إلى غياب العقل..

ونضيف إلى عقول العقاد العقل اللُب، أو لُب العقل الذى تحدث عنه القرآن، وقرنه بالرسوخ فى العلم بمعنى التعمق، وإمكانية التمييز بين الحسن، والأحسن:

- «والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الألباب» آل عمران(7)..

- «لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب» يوسف(111)..

ولب العقل هو الذى يعتبر بالقصص القرآنى..

- «ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا وما يذكر إلا أولو الألباب» البقرة(269)..

فالحكمة لا يدركها عادة إلا أولو الألباب..

- «ولكم فى القِصاص حياة يا أولى الألباب» البقرة(179)..

حتى القصاص توجه به إلى أولى الألباب للقيام به..

ولم يتحدث القرآن عن العقل فقط، ولكنه عبر عن أدواته وهى الفكر، والفقه(الفهم)، والبصر، والبصيرة، والنظر، والتدبر، والاعتبار، والذكر، والتذكر، والعلم، والتعلم، والخبرة..

obeikandl.com

والعقل يقابله الجنون، وتوقفه يعنى الجمود، والعنت، والضلال..

ولا كهانة فى الإسلام، ولا وساطة، ولا مسجد يحول دون انطلاق العقل نحو خالقه فى أى وقت يستجلى منه الحكمة، والموعظة الحسنة بلا سلطان، أو حائل، لأنه ألزمه طائره فى عنقه، فلا يُؤخذ بعمل غيره:

- «ولا تزر وازرة وزر أخرى» الأنعام(164)..

- «كل امرئ بما كسب رهين» الطور(21)..

- «وكل آتيه يوم القيامة فردا» مريم(95)..

وكما أباح انطلاق العقل فإنه حذر عليه الالتفات إلى من يحجر على هذا العقل بعبادة السلف، أو أصحاب السلطة الدينية، والخوف منهم، فبقدر ما حارب الإسلام حماقات أهل الجاهلية، واتباعهم لآبائهم، وأسلافهم بغير عقل، أو تعقل فقد فرض علينا من جاءوا بعد عصر السلف أفراد هذا العصر، واعتبروهم هم الإسلام، وتجاوزوا بهم أصل الدين من قرآن، وسنة، فالقرآن ما فعله الصحابة، والتابعين، والسنة ما قالوه رغم ما كان بينهم من اختلاف، وشقاق، وبُغض وصل إلى الحرب، والإبادة، فأصبح الدين عُرفا، وعبادة للسلف، فلا دين إلا إذا قال الشافعى، أو ابن حنبل، أو غيره، فحذو حذو أهل الكتاب الذين:

- «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» التوبة(31)..

ثم حذر منهم المؤمنين به قائلا:

- «إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله» التوبة(34)..

يقول الزمخشرى(من المعتزلة) فى كتابه «أطواق الذهب فى المواعظ والخطب» ملقبا العقل «بالسلطان»:

- «امش فى دينك تحت راية السلطان، ولا تقنع بالرواية عن فلان وفلان»..

والرواية، والأخذ بالروايات بلا تفكير هو مذهب أهل السنة؛ حتى جعلوها فى قداسة نصوص القرآن الكريم، وهو ما رفضه المعتزلة فرماهم أهل السنة بكل الموبقات، والبذاءات كعادة المفلسين..

يقول الجاحظ:

- «وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل»..

ويقول عنهم المستشرق جولدتسيهر Goldziher:

- «وسّعوا معين المعرفة الدينية بأن أدخلوا فيه عنصرا مهما، وقيّما وهو العقل الذى كان حتى هذا الحين بعيدا جدا عن هذه الناحية»..

وفى العصر الحديث قال عنهم د.محمد عمارة:

- «كوكبة من أهل الفكر، والنظر، والدين، والثورة اتخذوا الفلسفة، والفكر، والرقى فى المعرفة بديلا عن الأحساب، والأنساب».. ويقول:

- «ومقام العقل عندهم كان عاليا، وصفات الأرستقراطية الفكرية، وسمات العلماء كانت واضحة فى أوساطهم كل الوضوح»..

يقول الإمام القاسم الرسّى:

- «إن حجة العقل أسبق من حجة الشرع، أو هى أصلها، فالشرع إنما بالعقل يعرف»..

والغريب أن نظرية التكليف فى الفقه الإسلامى تقوم على أساس العقل، وإلا فلا تكليف، وعلى الرغم من وضع الفقهاء هذه القاعدة الفقهية على رأس مسلماتهم إلا أنهم لا يسلمون بأولوية هذا العقل، ولا يمنحونه الحق فى التفريق بين الصالح، والطالح، وفهم النصوص التى منحوها فقط لعقول عدد من أفراد، وكلوا لهم أمر فهم نصوص الوحى، وصادروا على عقول كل الأمة فى الفهم بحجة أنهم عاصروا الوحى؛ الذى اختلفوا فى أسباب نزوله اختلافا أصبحوا فيه هم والمتأخرون سواء، ويبدو أنهم قصدوا إلى ذلك قصدا بوازع احتكار فهم الدين لأنفسهم من دون الناس، وما الفقهاء إلا كهنة هؤلاء الأوائل بمنحهم قداسة نصوص الوحى نفسها، وإجبار الناس على ذلك، وإلا أصبحوا فى عرف هؤلاء الكهنة مارقين، وفسقة، والمتأخرون منهم غالوا فأباحوا دم الناس، وقتلهم إن لم يخضعوا لفهم الأوائل..

ظهر المعتزلة حوالى 107هـ - 725م، ولم تأخذ الحركة صفة المذهب المنفصل فى أول أمرها حيث ضمت فى صفوفها عناصر شيعية، وسنية، وكان همهم هو التوفيق بين الإيمان، والمنطق، أو النقل، والعقل، أو العقائد الإسلامية، والعقلانية اليونانية فى مواجهتهم للجبرية السنية المتزمتة، فأفرز علما عقائديا سموه «علم الكلام» ساد الفكر الإسلامى لعدة قرون، وكان من أهم وسائل دعم العقيدة الإسلامية، والدفاع عنها بالجدل العقلى المنطقى، بعيدا عن النصوص الصماء لأهل السنة التى لا تعنى شيئا لغير المسلمين الذين يراد دعوتهم إلى الإسلام عن طريق العقل، والمنطق، وكان غير المسلمين عادة من أنصار المادية، والمانوية(Manicheanism) من أتباع «مانى» الذى ظهر

فى القرن الثالث الميلادى بغرب فارس بدعوته لتوحيد الأديان الكبرى، وكان يؤمن بوجود الهين أحدهما للخير، وآخر للشر..

يرى حسين مروة فى كتابه «النزعات المادية فى الفلسفة العربية الإسلامية» أن المحرك الأول للعقل العربى فى نشأة علم الكلام قبل حركة الترجمة كانت عقيدة الجبر التى رفعها الأمويون لتبرير اغتصابهم للسلطة، وجعلها وراثية، ولم يكتفوا بذلك بل حكموا المسلمين بالحديد، والنار، فكان الاعتزال، والعقل هو الرد السلمى الناعم على تلك الجبرية التى فُرضت عليهم بقوة الدين على يد ثالوث الشهداء «معبد الجهنى»، و«عمرو القصاص»، و«غيلان الدمشقى» أسلاف المعتزلة، ثم سلم المعتزلة الراية للفلاسفة المسلمين بعد صراع أيديولوجى بين «الجبرية»، و«القدرية» فى أواخر القرن الأول الهجرى التى تعد بدايات العقل العربى الإسلامى فى عالم الفلسفة، وهو تاريخ الحرية كما يقال..

أذاع معاوية بن أبى سفيان حديثا أثناء فترة ولايته مفاده التبشير بفكرة الجبر، مستخدما الدين فى تعزيز ولايته سياسيا، يقول الحديث عن المغيرة بن شعبة:

- «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول فى دبر كل صلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شىء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطى لما منعت، ولا راد لما قضيت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»..

يعنى مهما جد الإنسان فلن يبلغ إلا ما كتبه الله له..

لعب الجبرية دورا هاما فى دعم الدولة الأموية، وتبرير بطشها فكل ما يحدث للإنسان مرجعه إلى المشيئة الإلهية حتى اغتيال الحسين، وقتله بتلك القسوة فى معركة غير متكافأة، وجر نساء بيت رسول الله سبايا حاسرات الرأس إلى دمشق عملا مقدرا سلفا، وبالتالى فلا معنى لاتهام الدولة الأموية بهذا السفه، والجبروت، أما القدرية فتم قطع رأس كبيرهم «معبد الجهنى»، وآخرون طالهم الشنق، والتعذيب فى السجون خاصة فى عصر «مروان بن عبد الملك»، ولكن خطاب حرية الإرادة ما زال فى اطراد حتى تولدت حركة «المعتزلة» فناصبهم الفقهاء، ورجال الدين العداء.

ازدهر علم الكلام المعتزلى بعد قيامه بالتنظير العقلى للعقائد الإسلامية التى استوعبها الضمير العربى المسلم، ومثلت نسيجه القيمى، وشكلت ملامح المجتمع العربى المسلم، وقسماته، وأصبحت مخزونه النفسى، وبناءه الشعورى، فجندت الدولة العباسية الناشئة علم الكلام، والعقل الإسلامى الناشئ ممثلا فى رموزه، وأقطابه ضد الشعوبية التى اجتاحت الدولة الكبرى المتربعة فوق آلاف

obeikandl.com

الأميال المربعة بما فيها من ثروات، وشعوب تتلاطم بمختلف لغات، وأديان العالم المعمور، «فخاضت العقلية العربية الإسلامية الحرب الشعواء ضد التيارات المانوية، والمجوسية، والغنوصية التى تأثرت بها أديان ما قبل الإسلام من يهودية، ومسيحية، حتى أصبحت خطرا على الدولة العباسية نفسها بعد أن تضعضعت أركانها، وانكمشت رقعتها، وأصبح خلفاؤها أنفسهم ضحايا الأجناس التى دخلت الإسلام كالفرس، والترك بعد أن عادوا إلى الاستبداد، وكرروا سيرة بنى أمية فى الحكم بالحديد، والنار، وأصبح الجو مهيأ لظهور الأشاعرة للرد على هؤلاء العقلانيين، وتحجيمهم بأفكارهم المتوسطة بين الجبرية، والعقلية؛ فأصبح الأشاعرة هم منظرى العصر العباسى الثانى، وما تلاه..

وساهم الشيعة أيضا فى تطور علم الكلام، ومباحثه أواخر القرن الهجرى الأول بعد أن أسس الإمام جعفر الصادق(83 – 148هـ)(702 - 765م) بكلامه أيديولوجية الدولة الشيعية التى أصبحت بعد ذلك واقعا، امتد من المغرب فى عكس اتجاه تواجد العباسيين السُنة، وامتدت دولتهم حتى تماست مع دولة بنى العباس، وذابت فيهم الدولة العباسية؛ فلقيا حتفهما فى خندق واحد، وفى وقت واحد عندما التقوا فى النهاية على أرض بغداد مدينة العباسيين..

والأصول الخمسة للمعتزلة التى اتفقوا عليها، وأخرجوا منهم من أنقص، أو زاد فيها هى:

1 - التوحيد..

2 - العدل..

3 - الوعد والوعيد..

4 - المنزلة بين المنزلتين..

5 - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر..

بدأ النقاش فى المسائل الكلامية على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ صرح قوم بالقدر، وآخرون بالجبر، وفريق ثالث بالتحسين، والتقبيح العقليين، وظهر مع هؤلاء من جادلوا فى الذات الإلهية تفكرا فى جلال الله، وتصرفا فى أفعاله حتى نزل قوله تعالى:

- «وهم يجادلون فى الله وهو شديد المِحال» الرعد(13)..

بمعنى أنهم لم يبلغوا شيئا من جلاله، وجماله، وعظمته مهما جادلوا، وأطالوا تفكيرهم، لأنه تعالى أكبر، وأجل، وأجمل، وأعظم، فلا تفيه الكلمات قدره تعالى، ولا يحيطه فكر الإنسان الذى ميزه بالعقل عن سائر مخلوقاته..

وانقضى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم(10هـ - 634م) على ذلك حتى أعاد «الحسن

البصرى»(توفى 110هـ - 728م) القول بالقدر، وإنكار إضافة الخير، والشر إليه، وقال بذلك «معبد الجهنى»(ت 80هـ - 699م)، و«غيلان الدمشقى»(ت 105هـ - 723م)، و«يونس الأسوارى»، و«واصل بن عطاء»(80 – 130هـ)(699 – 748م)، ولكن واصل اعتزلهم بالقول بالمنزلة بين المنزلتين، معترضا على تكفير الحسن البصرى لمرتكب الكبيرة، فسموا المعتزلة هو ومن قال قوله، ثم دعمت الفلسفة اليونانية التى ترجمت أيام المأمون حجج المعتزلة، وقابلوها بعلم الكلام الموافق للمنطق لدى الفلاسفة، وكان «أبو الهزيل العلاف» شيخهم الأكبر..

وفى أواخر القرن الأول الهجرى ظهر فى الناس مَن تحلل مِن الشريعة متعللا بالقدر فيما يرتكب من المعاصى، والآثام من زنا، وسرقة، وشرب خمر وهو يقول:

- «كان ذلك فى علم الله»..

ولمواجهة هذه الظاهرة فى سلوك الناس نشأت مسألة «الفعل الإنسانى» التى تتمثل فى الحرية الإنسانية من حيث العقل، وتحمل المسئولية، وهو ما تكلم به القدرية الأوائل مثل «معبد الجهنى»، و«غيلان الدمشقى» حتى جاء المعتزلة فى القرن الثانى من الهجرة ليبدأ معهم علم الكلام، فجعلوه أصلا من أصولهم الخمسة.

كان أصحاب الكلام قد أثاروا قضايا علم الكلام، واستخدام المنطق، والفلسفة فى مجادلة الملحدين، والزنادقة وعلى رأسها قضية خلق القرآن، وبدأ المعتزلة فى حكم «هشام بن عبد الملك» يتكلمون فى حرية الاختيار، وفى البيعة، والشورى، فانتهز حكام بنى أمية انتقادات الفقهاء، ورجال الدين لهم، واتهموهم بالكفر، وقضت الدولة على أول من قال بهذا وهو «الجعد بن درهم» فحبس، وعذب فى فجر عيد الأضحى؛ عندما خطب والى العراق فى الناس خطبة العيد، وقال فى آخر الخطبة:

- «انصرفوا وضحوا تقبل الله منكم؛ فإنى أريد أن أضحى اليوم بالجعد بن درهم»..

ونزل من على المنبر فذبحه كما تذبح الأضحية، وهذه الحادثة توضح ضيق الخلافة الأموية عموما بمن يخالفونها فى الفكر، والعقيدة وهو ما وافق هوى أهل السنة – بعد ذلك – الذين دخلوا بالمسلمين فى كهوف الظلام التى لا أمل فى الخروج منها، فقد أفلحوا فى وضع الإنسان المسلم فى دوائر جهنمية من المحرمات التى لا تنتهى إلا بوصوله إلى القبر الذى حرموه أيضا..

ظهرت مشكلة الألوهية(الذات، والصفات) مع انتشار الإسلام أواخر القرن الثانى الهجرى خاصة لدى «النظّام»، و«العلّاف» وذلك لمواجهة اليهود أصحاب التجسيم، والنصارى أصحاب التثليث، والمجوس أصحاب الثنائية، ثم ظهرت مشكلة النبوة بعد ذلك حينما واجه الإسلام أصحاب الديانات

الهندية، خاصة السُمنية، والبراهمية..

طالع شيوخ المعتزلة الفلسفة اليونانية بعد أن دخلت حيز التفكير الإسلامى أيام الخليفة المأمون العباسى فأخذوا منهجها، أما أفكارها فكانت مغايرة للعقيدة الإسلامية، فأفردوا فنا جديدا أسموه علم الكلام ناقشوا فيه مبادئ هذه العقيدة، وأيدوا أفكارهم بآيات القرآن الكريم بما يساير عصر الانفتاح بعد فورة الفتوح العظيمة، واختلاط الأجناس، واللغات، والديانات فى البوتقة الإسلامية، فكان لزاما على المسلمين الدعوة إلى الإسلام بالبرهان العقلى بعيدا عن النصوص، وأساليب الفقهاء، ورجال الدين التى لا تعرفها البلاد المفتوحة، ولا تفهم لغتها العربية، فبرز فى هذا المنوال شيخهم الأكبر أبو الهزيل العلاف(135 – 226هـ)(752 – 840م) الذى أسلم على يديه نحو ثلاثة آلاف، وقد تأثرت قضايا المعتزلة، ومباحثهم بالفلسفة اليونانية فى الجوهر، والسكون، والحركة، وعلم الإنسان، والخلق، والتوليد؛ الخ..

ثم جاء من بعدهم من خلط أفكار الفلسفة اليونانية بالكلام من غلاتهم مثل «إبراهيم بن سيار النظام»(ت 231هـ - 845م)، و«بشر بن المعتمر»(ت 226هـ - 840م)، وتلميذه «أبو موسى المرداد»(ت 226هـ - 840م) فدخلوا بغلوهم، وتشددهم، وميلهم إلى الطبيعيين من فلاسفة اليونان مثل أرسطو فى صراع مع فقهاء السنة طال أمده مثل مسألة خلق القرآن..

توسط منهم جماعة بين الشيوخ الأوائل، والغلاة الأواخر مثل «ضرار بن عمر»، و«حفص الفرد»، و«الحسين بن النجار»، ونبغ فيهم «جهم بن صفوان»(ت 124هـ - 741م)الذى أظهر مقالته فى الجبر بناحية ترمذ فقتله «مالك بن أحوز المازنى» آخر أيام بنى أمية..

وقد غلبت مباحث الأخلاق، والفلسفة الطبيعية على الأوائل من المعتزلة، وعاصرهم علماء الطبيعيات، والرياضيات، أما المتأخرون منهم فقد غلب عليهم النظر فيما بعد الطبيعة، والمنطق..

واختلف المعتزلة عموما فى مسألة الصفات(صفات الله تعالى) التى أنكروها بينما أثبتها أهل السنة، أو ما أسموا أنفسهم بالسلف، الذين شبهوا صفات الله بصفات الخلق فتسموا «بالصفاتية»، وإثر مناظرة بينه وبين أستاذه «الجُبّائى»(235-303هـ)(849 - 916م) هجر «أبو الحسن الأشعرى»(324هـ - 935م) المعتزلة، ونادى بالتوسط بين الطرق؛ فنفى التشبيه، وقصر التنزيه على ما قصره عليه السلف من الصحابة، فانضم إليه كل الصفاتية، وصار اسمه علما على مذهبه الجديد فى علم الكلام؛ والذى عرف أتباعه «بالأشاعرة» بدلا من الصفاتية، أو السلفية الذين أقنعهم الأشعرى بحججه التى لا تتزعزع، فقد أخذ عن المعتزلة أسلحتهم الجدلية فى الإقناع..

وظل الأمر للمعتزلة إلى بدايات القرن الرابع حتى بدأ الانحدار بظهور أبى الحسن الأشعرى، والأشعرية فى الفكر الإسلامى؛ فاتجه الفكر المعتزلى نحو الشيعة؛ وخاصة الزيدية، وازداد هذا الاتجاه حتى بلغ غايته على يد «نصير الدين الطوسى» فى القرن السابع الهجرى، وتسرب هذا الفكر كذلك إلى مؤلفات الأشاعرة فى هذا القرن متمثلة فى كتابات «ابن خلدون»(808هـ 1405-م) فى كتابه «لباب التحصيل»..

وتقول بعض الآراء إن مذهب الاعتزال من حيث الفكرة، والعقيدة اللتين قال بهما واصل، وعمرو بن لبيد تنتهيان إلى على بن أبى طالب، وقد أخذ واصل عن «محمد بن على بن أبى طالب»، وأخذ محمد عن أبيه، ويؤيد هذا الرأى أن الشيعة الزيدية يوافقون المعتزلة فى أصولهم كلها إلا مسألة الإمامة، وأن «زيدا بن على زين العابدين بن الحسين» كان تلميذا لواصل بن عطاء رأس المعتزلة، كما ظهر الاعتزال فى أعيان الزيدية من الحكام، والأدباء «كأبى الفضل بن العميد»، و«الصاحب بن عباد»، وبعض أمراء بنى بويه، والشيعة عموما يميلون فى عقائدهم إلى الاعتزال، ويتفقون مع المعتزلة فى أكثر الأصول..

وإن كان الاعتزال مذهبا عقليا بحتا لم ينشأ فى حضن السياسة كبعض المذاهب الإسلامية مثل الشيعة، والخوارج، إلا أن المذهب دخل السياسة من أوسع أبوابها، وفى وقت مبكر من عصر الدولة الأموية عندما هاجم المعتزلة الخليفة الأموى المتهتك «الوليد بن يزيد»، ووقفوا إلى جانب «يزيد بن الوليد بن عبد الملك» حتى تولى الخلافة، فقربهم، واعتنق مذهبهم، وفى غروب الدولة الأموية اعتنق «مروان بن محمد» آخر خلفائهم مذهب الاعتزال مما يدل على قوة المذهب، وانتشاره، وكثرة أتباعه..

وقد انزوى المذهب قليلا بعيدا عن السياسة بعد سقوط الأمويين، لمناصبة بعض خلفاء بنى العباس العداء له، فقد هدد هارون الرشيد «بشرا المريسى» الذى كان يقول بخلق القرآن بالقتل، وكان المريسى تلميذا «لأبى يوسف» صاحب، وتلميذ أبى حنيفة فغضب عليه عند سماعه هذه المقالة، وطرده من مجلسه فاختفى عشرين عاما، ولكنهم عادوا بعد الرشيد ليسيطروا على الدولة، وخلفائها أيام المأمون، والمعتصم اللذَين اعتنقا المذهب فسخّرا إمكانيات الدولة للدعاية له، وانتشاره، والوقوف فى وجه أعدائه من أهل السنة..

لقد شكل المعتزلة جبهة قوية ضد الرافضة، وغلاة الشيعة، والخوارج، والمجسمة من المسلمين، والزنادقة، والدهرية، واليهود، والنصارى، وغيرهم، فدافعوا دفاعا مستميتا عن الإسلام مما لو

تركوهم بأفكارهم المنحرفة فى صفوف المسلمين لكان خطرهم عليهم، وعلى الإسلام وبيلا..

يقول ابن القيم عن تفسير المعتزلة العقلى للقرآن بكل ما أوتى من سلاطة اللسان، وسفه الأحكام(وهم مسلمون ذنبهم أنهم اختلفوا معه فقط):

- «زبالة الأذهان، ونخالة الأفكار، وعفارة الآراء، ووساوس الصدور، فملأوا بها الأوراق سوادا، والقلوب شكوكا، والعالم فسادا»..

ويقول عنهم جولدتسيهر فى كتابه «مذاهب التفسير الإسلامى»:

- «وأشرف انتفاع يستفيده المعتزلة من اشتراطهم - فيما يتصل بتفسير الكتاب - مطابقة العقل فى الحقائق الدينية هو محاربتهم للتصورات الخرافية المناقضة للطبيعة التى رسخت قدمها فى الدين»..

استفز أحمد بن حنبل من أهل السنة غلبة أصحاب الكلام على قصر الخليفة، وعلى الحياة الفكرية فشدد النكير عليهم، وشرع يهاجمهم فى حلقاته بالمسجد، وأخذ يحذر منهم طلابه، ومريديه ويقول:

- «لا نكاد نرى أحدا نظر فى الكلام إلا وفى قلبه رغْل(فساد)»..

يقول الملطى فى كتابه «التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع»:

- «وهذا جماع كلام الجهمية وإنما سموا كذلك لأن «الجهم بن صفوان» كان أول من اشتق هذا الكلام من كلام السُمنية»..

والسُمنية، أو الشُمنية، أو السُمانية، أو الشمسية، أو عُبّاد الشمس هم هنود أنكروا من العلوم ما سوى المحسوسات، ويواصل الملطى كلامه:

- «وكانوا قد شككوا فى دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوما، وقال؛ لا أصلى لمن لا أعرفه، ثم اشتق هذا الكلام وبنى عليه»..

ويقول عنه الذهبى فى كتابه «ميزان الاعتدال»:

-«مبتدع ضال زعم أن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلا، ولم يكلم موسى»..

ونقل عن أبى حنيفة فى نفس الكتاب قوله:

- «أفرط جهم فى نفى التشبيه حتى قال إنه تعالى ليس بشىء، وأفرط مقاتل فى معنى الإثبات حتى جعله مثل خلقه»..

ومن هنا كان تشنيع، وتحريض الفقهاء، ورجال الدين على الجهم، وظلوا به حتى قتله الأمويون،

obeikandl.com

وفى المقابل لم يقتربوا من مقاتل رغم إفراط هذا، وذاك، ولكنه عندما يوافق معتقداتهم فلا غبار عليه، وكان أغلب المعتزلة على صلة بالفرس، بل كان بعضهم من أصل فارسى مثل «أبو الأعلى الأسوارى»، فقد كانت الدولة الأموية تحتقر الموالى من فرس وغيرهم - ولو كانوا مسلمين - وتتحيز للعرب، ومن هذه الدولة أخذ أهل السنة كراهة الآخر، وسفهوا أى إنجاز نسب إليهم..

وينقل ابن تيمية فى كتابه «الإيمان» عن وكيع بن الجراح:

- «وقد مرت القدرية بمرحلتين، فى المرحلة الأولى أنكروا القدر بالمعنى الوارد بالحديث فى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود:

-(أن الله يبعث ملكا بعد خلق الجسد، وقبل نفخ الروح فيه فيكتب أجله، ورزقه، وعمله، وشقى، أو سعيد).. ولكن عندما اشتهر الكلام فى القدر فى مرحلة تالية، وشارك فيه كثير من النظار، أصبح أغلب القدرية يقرون بتقديم العلم الإلهى، وينكرون عموم المشيئة، والخلق»..

ولأنهم يتداولون الروايات بلا تمحيص علمى، أو عقلى، فهو جهل يتباهون به يدخلهم فى الغرور، فهذا الحديث الذى كثيرا ما يتداولونه حتى عصرنا هذا الذى كشف دخائل الذرة، والخلية، واطلع على دقائقها بإذن الخالق:

-«ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء» البقرة(255)..

فلو كانوا يستحقون العلم لأطلعهم الله علي أسراره، ولكنهم اختاروا الجهل، فآتاهم الله منه ما يشاءون، وما زالوا يرتعون فى غياباته، حتى تقدمت كل الأمم ما عدا الأمة الإسلامية التى ابتليت بهم، ليضعوا لها العراقيل فى كل مناحى حياتها؛ فالحديث المذكور مكذوب لكونه يخالف بديهيات العلم الحديث المثبت بالعقل، والمشاهدة، والتجربة، وعلاوة على ذلك يكذبه القرآن الكريم عند الحديث عن بداية خلق الإنسان، بمعنى أن الخلق لا يصير خلقا حيا إلا بنفخ الروح:

- «فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين» الحجر(29)..

وهؤلاء المحدثون هم أكثر من أسهبوا فى روايات بداية خلق آدم التى جلبوها غالبا من اليهود المنتشرين فى الجزيرة العربية، وكافة البلاد المفتوحة، فهناك روايات عن تسوية آدم من الطين كالفخار فترة من الزمن قبل أن ينفخ الله فيه الروح، فهل جسد الطفل فى بطن أمه قبل نفخ الروح عبارة عن طين، أو فخار، أو صلصال؟.. إن الروح أساسا فى النطفة المكتظة بالحيوانات المنوية الحية، والنشيطة جدا، وهى الأمشاج Gamets التى تحدث عنها القرآن بوضوح شديد، ولم يقف عندها أهل السنة كثيرا لأنهم مشغولون دائما بجمع الروايات من كل منافذ البيع، ثم وضعها فى كتبهم

للتعتيق، وبالتقادم تصبح نصا مقدسا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه - كالقرآن تماما - ويكفِّرون كل من ينتقد هذه الروايات، أو يتجاسر بالتفكير فى مفرداتها، يقول تعالى:

- «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا» الإنسان(2)..

والأمشاج كائن حي يخرج من كائن حى(الأب) تسقط فى رحم كائن حي(الأم)، وليست طينا، ولا فخارا كما يدعى الحديث المفتَرَى على رسول الله من جهلاء مغرورين، وليس هذا من كلام نبى يستمد علمه من الله تعالى بالوحى، فالأنبياء ما هم إلا علماء، ولم يكونوا دراويش، أو بهاليل كما بينا..

وبكثرة العقائد الدينية المنقولة، والأفكار العقلية التى ماج بها العالم الإسلامى إثر الحركة الواسعة، والسريعة للفتوح، والكم الهائل من جموع الأسرى، والجوارى التى جلبتها هذه الفتوح يحملون أشتاتا من العقائد، والعادات، والثقافات تبلور اتجاه بعض المحافظين، والحافظين للنصوص من المسلمين إلى إرجاع كل الأمور إلى القرآن الكريم، والسنة المكتوبة، أو المأثورة بالأفعال المتوارثة ناسين، أو متناسين أن هناك أمورا دنيوية بحتة لا تدخل بحال من الأحوال ضمن إطار أى نص دينى؛ كما ذكرنا فى المقدمة عن حادثة تأبير النخل التى أثارها الرسول الكريم للفصل بين ما هو خاضع للدين، وما هو دنيوى بحت يتناوله المسلم، وغير المسلم، وربما كان غير المسلم أبرع، وأنفع فيه، وقد أخذ بها المسلمون فى نظم الإدارة، والحكم، ولم تلق اعتراضا من أحد، ولم تدخل ضمن نطاق هؤلاء حيث أصبحت أمرا واقعا، وإقراره، أو رفضه يعد تجاهلا للواقع، ومضيعة للوقت مثل تدوين الدواوين منذ فترة حكم عمر بن الخطاب، وحاليا فى ارتداء الملابس الأوروبية، وركوب الطائرات، والقطارات، وتحويل الأموال فى البنوك نظير أجر، أو فائدة، أو مصاريف دون أن يسأل المسلمون عن ذلك، ودون استطاعة الفقهاء - لو سئلوا - البت فى الحِل، أو الحرمة لعدم وجود نص، أو أثر، وربما فهم..

الأشاعرة أول من عُرفوا بأهل السنة:

يرى الجبرية أن الله خالق أفعال الإنسان، بينما يرى المعتزلة أن الإنسان خالق أفعال نفسه لأنه مسئول عنها، وجاء الأشاعرة ليتوسطوا بين الرأيين فرأوا أن أفعال الإنسان لله خلقا، وإبداعا، ولنفسه خلقا، ووقوعا عند قدرته على الفعل، فالإنسان فاعل، والله خالق هذا الفعل، وبالنسبة

إلى خلق القرآن، أو قدمه فقد فرقوا بين كلام الله القائم بذاته، وهو قديم، وبين الكتاب الذى نزل على محمد، وهو بين أيدينا..

احتدمت المباريات العقلية أول الأمر بين القدرية أنصار حرية الإرادة، والجبرية أصحاب القضاء، والقدر وكانت الغلبة للقدرية، ثم أخذ مذهب الأشاعرة الجبرى يسيطر بالتدريج خاصة بعد تحول أبى الحسن الأشعرى عن مذهب العقلانيين المعتزلة، وأصر أنصار المذهب الأشعرى على إنكار أى صلة بقانون السببية، ثم أنكروا التفكير العقلانى، ومن ثم فقد رفضوا أيضا فكرة السببية الثانوية، بمعنى أن الله هو المسئول عن كل شىء فى إطار القوانين التى وضعها للعالم، ومن الأسباب التى تقنع المجتمعات بالرغبة فى العلم المادى، وتغذيته هى العلاقات السببية التى تنمى فعالية الإنسان، ومشيئته فى النمو، والتقدم، وصنع الحضارة، بيد أنها تخمد بازدياد التدخل الإلهى فى مشيئة الإنسان، واختياراته، وبالتالى الرغبة فى الجديد، إذ ليس فى الإمكان أفضل مما كان، ويصبح حب الاستطلاع، والتخيل، والطموح قيم ليس لها أى معنى، وبالتالى ستنعدم رغبة هذه المجتمعات فى التطلع إلى استكشاف المجهول باستخدام آلات العلم..

استطاع أبو الحسن الأشعرى أن يتوسط فى قضايا العقائد، إلا أن فقهاء من الحنابلة ارتابوا منه، ورموه بالكفر، ولكنه لم يفتقر إلى من يقتنع بأفكاره من كبار العلماء بعد وفاته كأبى بكر الباقلانى، والجوينى إمام الحرمين، والاسفرائينى وغيرهم ممن تبنوا أفكاره، وأطلقوا عليه مذهب أهل السنة، والجماعة، وانتشر الاسم، وانتظم تحته أهل الحديث، والأئمة الأربعة أبو حنيفة، ومالك، والشافعى، وابن حنبل، وكذلك الأوزاعى، والثورى، ثم انسحب الاسم بأثر رجعى على الصحابة، والتابعين..

كان الباقلانى من أنشط دعاة المذهب الأشعرى، وهو الذى ثبت أركانه، وهذب طريقته، ووضع لها المقدمات العقلية، وكان حر التفكير فاختلف مع الأشعرى فيما لم ير فيه رأيه؛ فاشترط للاجتهاد التضلع فى الفلسفة، وبالذات علم الكلام، واعتمد على المنطق الأرسطى..

ثم جاء بعده الجوينى إمام الحرمين، وشيخ الغزالى(419 – 478هـ) (-1028 1085م)، وكان متحرر الفكر، واسع الأفق، نافرا من التقليد، فنادى بأن معرفة مقاصد الشريعة هى أساس الاجتهاد، وذلك بعرضها على واقع الزمن، ومستجداته، ومشكلاته من أجل مصالح الناس التى تقوم على مدركات عقلية ليست نقلية، ولا نصية، يقول:

- «يأتى على الناس زمان لن يعملوا فيه بالشريعة، فتصبح تاريخا، وغير موجودة لمفارقة الواقع

لها»..

وسبق الشاطبى زمانه(مثل ابن خلدون فى التاريخ، والاجتماع)، وتجاوز الفقهاء فاستخرج من الشريعة بنودا واضحة هى مصالح العباد دنيا، وآخرة، وأخضعها لمقدرات، وعادات واقع زمانه، واشترط على الفقيه أن يكون عارفا بعلوم عصره، ويراعى أن الأصل فى الأشياء هو الإباحة، وليس التحريم..

رفض الأشاعرة عقلانية المعتزلة رفضا باتا، وصاغوا مذهب الاكتساب الحتمى، وهو أن أفعال الإنسان مخلوقة، وأن الله هو خالق أفعال البشر، وأن البشر هم وسائل لإتيان هذه الأفعال، فالفعل الواحد يأتى عن طريق فاعلين؛ الله، وهو خالق الفعل، والثانى الإنسان وهو مكتسب هذا الفعل، وهذا ما عبر عنه الغزالى فى كتبه من انفصال النتيجة عن السبب، فسبب الأكل هو الجوع، وقدرة الله تستطيع خلق الشبع بلا أكل، على الرغم من استنكار عمر بن الخطاب اعتماد الرجل العابد على عمل أخيه الذى يأكل منه، ويشرب، وقال له إن أخاك أفضل منك، فإن السماء لا تمطر ذهبا، ولا فضة..

وعاصر أبو منصور الماتريدى – فى بلاد ما وراء النهر – الأشعرى، فنحا نحوه فى التوسط، والاعتدال إلا أنه مال قليلا إلى المعتزلة، ولم يكفر أحدا من مجتهدى المسلمين، ولكنه كان يستهدف دائما مناهج الصحابة، والتابعين..

الماتُريدية أو الماتوريدية:

لم يحظ أبو منصور الماتُريدي بشهرة الأشعرى لميل مذهبه العقائدى نحو المعتزلة الذين كرههم الفقهاء، والمحدثون عندما اشتد المعتزلة فى تسفيههم، ومن حذا حذوهم فى الاعتماد على الآثار المنقولة، والروايات حتى قيل:

- «إن الأشاعرة بين المعتزلة والمحدثين، والماتُريدية بين المعتزلة والأشاعرة».. حيث كان الأشعرية يتقيدون بالنقل، ويؤيدونه بالعقل، بينما كان الماتُريدى يعتمد على العقل بإرشاد من الشرع، خاصة فى المسائل العقلية المتعلقة بالعقيدة، وهو ما سار به على نهج شيخ شيوخه الإمام أبى حنيفة؛ متحولا بمذهبه من ميدان الفقه إلى ميدان العقيدة، والفكر..

السلفية:

عندما تعددت المذاهب، والفرق، وذهب كل فى طريق؛ رأى البعض الرجوع إلى المعين الأصلى للعقيدة من قرآن، وسنة، وليس هناك من سبيل إلا اتباع خطى، وأفعال من حملها من رجال الرعيل الأول من صحابة، وتابعين قبل انتشار المذاهب من خوارج، وشيعة، ومعتزلة، ثم أشعرية، وماتُريدية، فدخلوا فى صراع مذهبى مرير مع كل هذه الفرق؛ خاصة بعد انتشار المذهب الأشعري الذى نافسهم فى مذهبهم، وقويت شوكتهم بظهور أحمد بن تيمية فى القرن السابع الهجرى بمناظراته، ومصنفاته الكثيرة، ولكنهم ما كانوا إلا امتدادا للمذهب الحنبلى فى عقائده، وأحكامه، وتشدده، وإنكار سلطان العقل فى الاعتقاد، والاستدلال من القرآن، والسنة، وعظموا شأن المنقول من النصوص، واعتبروا إعمال العقل فيه خروجا على الدين؛ حتى لو كان المنقول غير معقول، أو غير مطابق للواقع، فبرروا التناقض، وأولوا النصوص المتناقضة كى تتلاءم مع بعضها رغم أنهم أنكروا التأويل بداية، وهاجموا كل ما يمت إلى العقل، والتفكير، وكفروا الفلاسفة، ومناهج الفلاسفة، والعلوم العقلية، كما كفروا مِن بينهم من نادى بذلك، وإذا كان للعقل دور فهو فقط للإذعان، والتصديق، فهو شاهد، وليس حاكما، وهو مقرر، ومؤيد، وليس ناقضا، وهو ما أدى إلى جمود المسلمين نهائيا، وتحجر عقولهم، فسكنت حركتهم، وإن كانت ثمة حركة، أو بادرة نشاط فهى فقط للتسلل إلى خارج التاريخ، والهروب من الواقع..

واحتكرت السلفية فى العصر الحديث لقب «أهل السنة»، وأنهم الفرقة الناجية، ومن خالفهم فهو من الفرق الضالة، وقد برع المسلمون من كل الطوائف الأخرى، وشاركوا فى العلوم التجريبية ما عدا السلفيين الذين صرفوا هممهم فى اتهام باقى الطوائف بالزندقة فيما فشلوا فى فهمه، وفيما فشلت عقولهم القاصرة عن إدراكه، فلم يسلم منهم أحد..

والمشكلة لدى الأحداث منهم؛ أنهم لا يستطيعون تحمل صدمة اكتشاف أن الكثير من المرويات التى أقرها من يعتقدون أنهم أهل ثقة فى النقل، هى مرويات لا تتفق مع حقائق العلم البينة؛ والتى يحاولون تلبيسها لآيات القرآن عنوة لإثبات علمية الإسلام، وسبقه للمسيحية(صاحبة العلم الحديث)، بالرغم من أن أصحاب الروايات، وناقليها كانوا لا يعلمون شيئا عن حقائق الكون المادية، ولا سعوا لتعلمها بدليل عدم تفسير الآيات الكونية فى القرآن، أو الخطأ البين فى تفسيرها..

لقد كان أمر الدين محصورا فى زمن الخلفاء الراشدين فى حيز أولى الأمر من الرجال المعدودين

فلم يتجاوز أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلىّ، وهؤلاء احتكروا الجرأة فى التشريع، وتفسير الآيات، مع ما شهدوه من أفعال، رسول الله، وما سمعوه - ثقة - من أقواله، ولم يخوضوا كثيرا فيما لا طائل من الكلام فيه، وما يخرج عن معاش الناس، وحاجاتهم الروحية، حتى إن عمر بن الخطاب حصر الصحابة فى المدينة، ولم يسمح لهم بمغادرتها منعا للاجتهادات غير الموثقة، أو غير المتفق عليها بينهم، فكان يجمعهم - كلهم - فى الأمور الجليلة، والتى تحتاج إلى مشاورة، وإجماع ناشئ عن تفكير عميق، واستعراض دقيق للنصوص حتى لا تخرج الأمور من إطارها المحدد..

ولم يتركوا الأمر للعامة، ولكل من هب ودب ليفتى فى أمر الدين، فحصر الأمر على أولى الأمر مثله، ومثل أبى بكر الذى سبقه، والراسخون فى العلم كعلىّ بن أبى طالب، حتى فى أمر جمع القرآن تولاه فقط أبو بكر الصديق رفيق رسول الله، وأما تحديده، ورسمه فقد تولاه عثمان دون غيره، وأما إبطال بعض الأحكام فى الأزمات، والمجاعات، وإلغاء الصدقات للمؤلفة قلوبهم، ومتعة الحج، ومتعة النساء فقد تولاها عمر دون غيره، وكان منها ما هو فى ولاية أبى بكر، وليس فى ولايته هو(حتى لا يقال إنه فعل ذلك بقوة سلطته، ولكنه اختلاف الزمن، والظروف، وكسر الجمود، وإخضاع التشريع لمصلحة الأمة)، يقول تعالى محددا فئتين لا ثالث لهما فى تقرير أمر الدين:

-«ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر لعلمه الذين يستنبطونه منهم» النساء(83)..

-«وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم» آل عمران(7)..

فأما أولو الأمر فقد خرج عليهم الحفاظ، وهى الطبقة التى أطلقوا عليها اسم القرّاء، والذين عرفوا بالخوارج إذ أعلنوا خروجهم على هذا النظام المحكم، وادعوا هم أحقيتهم بالتشريع، وحريتهم فى تفسير النصوص، ووضعها حيث يشاؤون، ومن هنا انفرط عقد التشريع، وأصبح مباحا لمن استطاع حشد الناس إليه بأى وسيلة؛ فأصبح الدين مباحا فتفرق أحزابا سياسية كما تحدث عنهم القرآن بكل دقة:

-«إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء» الأنعام(159)..

ثم بدأ التقسيم، والتمييز، وتشريح الأمة وتسكينها فى الجنة، أو النار، وتجاوزوا بالدين حدود الشرك بالله حتى أخذوا مخصصات الله تعالى لأنفسهم؛ فادعوا العلم بما تخفى الصدور، وأشهروا سيف الحلال، والحرام على رقاب الناس، وأباحوا دماء من ليس فى زمرتهم، ولكى لا يستنكرهم الناس، والحكام أطلقوا على أنفسهم أهل السنة والجماعة، وادعوا أيضا أنهم الفرقة الناجية فأصبحوا ممن قال الله فيهم:

-«قل أتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده أم تقولون على الله ما لا تعلمون» البقرة(80)..

والتسمية فى حد ذاتها تخرجهم من الدين، فمن أين جاءوا بالسنة، فسيقولون من الرسول، ومن أين جاء بها الرسول الذى قال له الله تعالى:

-«ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان» الشورى(52)..

فهل الدين هو السنة، وأين هم من القرآن الذى ما جاءت السنة إلا لتجعل آياته تمشى على الأرض، وتسير حياة الناس فى المعاملات بالعبادات، والعقيدة..

فهل كانت العلوم العقلية التى نماها نوابغ المسلمين فى العصور الوسطى، وأضافوا إليها علوما خاصة ترتبط بالعقيدة الإسلامية؟.. أم كانت علوما إنسانية تستقى فرضياتها، وأساليبها عن طريق الحضارات التى سبقت الحضارة الإسلامية؛ بحيث أصبحت لها الحضارة الإسلامية بمثابة مصب النهر الجرار الآتى من الزمن البعيد..

أورد د.بدوى فى كتابه «تاريخ الإلحاد فى الإسلام» رأى «اشبنجلر» من أن الحضارة تحقق ما تحتويه من قوى، وتستمر فى هذا التحقيق طالما بها إمكانيات، وقوى خصبة، وتأتى النهاية عندما تبلغ ما تستطيع بلوغه، فتنتقل من طور الخلق، والإبداع إلى طور الاستهلاك، والتبديد، فإذا طبقنا هذا الرأى على الحضارة الإسلامية نراها بدأت بالخلق، والإبداع، ولكنها وُئدت بعد أن كُفنت حية بسبب عدم تمكينها من الخلق، والإبداع، ولم تبلغ مرحلة الاستهلاك، والتبديد التى مرت بها الحضارات؛ حيث تمت السخرية من هذا الخلق، وتسفيه هذا الإبداع، وربما تمكنت قليلا عندما وجدت دولة قوية واعية بأدوات الحضارة، وحمايتها فى عصر المأمون، ومن بعده المعتصم ضد تجار الدين الذين حقدوا على انتشار هؤلاء العلماء النابهين دونهم، وانفرادهم بالاختلاط بالسلاطين، والأمراء حيث أسسوا فكرهم - وليس الفكر الدينى - على رفض الآخر كلية مهما كان شأنه، ومواهبه، ثم رميه بالزندقة، والكفر للتخلص منه نهائيا، والقضاء عليه..

ويقول مالك بن نبى:

-«إن المقياس العام فى عملية الحضارة هو أن الحضارة هى التى تلد منتجاتها»..

وهو لا يتخيل الازدواج الحادث فى العالم الإسلامى منذ خمسين عاما من شراء أدوات الحضارة الغربية، والأموال التى تدفع فى الشراء بما يسميه «الحضارة الشيئية» الذى أدى إلى حالة من تكدس أكوام من منتجات الحضارة الغربية، بما نشأ عنه «حالة حضارة»، فكل ناتج حضارى تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية، وهى ثلاثة أعمدة ذات علاقة وظيفية:

الناتج الحضارى= إنسان+ مواد خام + وقت

وهى عناصر ثلاثة لابد من اتحادها، ولا تتحد إلا فى وجود عامل حفاز Catalyst يساعد عملية الاتحاد..

ويستعين د.بدوى «بكارل هنرش بِكَر» الذى ألقى محاضرة فى مؤتمر المستشرقين الألمان سنة 1921م بعنوان «الإسلام كجزء من تاريخ الحضارة العام» حاول فيه ربط تاريخ الحضارة الإسلامية بالتاريخ الأوروبى، مدللا على أن هذا التراث الحضارى الإسلامى قد نجح فى إيجاد النزعة الإنسانية فى تكوين أوروبا الحديثة، بينما فشل فشلا ذريعا فى أرضه التى أنبتته فلم تنشأ فيها هذه النزعة الإنسانية مع تشابه الظروف، والأحوال، ففى كل من أوروبا، والبلاد الإسلامية كان هناك أمراء يعنون بالعلوم، والفنون، والأكثر من ذلك كان نصيب العالم الإسلامى من التراث الإنسانى أكبر من نصيب أوروبا منه، والتى كانت لا تعلم عنه شيئا..

ويرى بِكَر فى محاضرة أخرى أن العالم الإسلامى قد اهتم بالتراث العقلى، والعلمى اليونانى فقط دون الاهتمام بالشعر الغنائى اليونانى فى الأدب الروائى لامتلائه بآلهة اليونان الوثنية، مما كان له الأثر الكبير فى تكوين العقلية الأوروبية إبان عصر النهضة التى قامت أساسا على الفن، ونرى أن المؤلف قد أغفل وقوف رجال الدين فى عصر المأمون ضد ترجمة هذه النوعية من الكتب خوفا على الدين، ومع ذلك نرى قدرا لا بأس به ممن رموهم بالإلحاد كانوا من المسلمين الشعراء، والأدباء المجيدين فى فنهم، قبل العلماء الطبيعيين مثل عمر الخيام الذى اشتهر بشعره الفلسفى(الرباعيات) أكثر من شهرته كفلكى، ورياضى كبير..

التصوف:

لا يوجد تعريف للتصوف قبل المائة الثانية من الهجرة، ولم يكن التصوف مذهبا روحيا له مدارسه، وشيوخه، ولكن الزهد كان باديا فى حياة من عرفوا بالزهاد؛ ربما اتباعا للنبى محمد صلى الله عليه وسلم فى حياته..

يتفق التصوف مع الدين الإسلامى فى طهارة الباطن، وحب الخير، وبغض الشر، وما إلى ذلك مما يتعلق بتخليص النفس البشرية من الصفات الخبيثة، أما الزهد، والانقطاع عن الناس، وما دخل عليه من المذاهب الهندية، والفارسية، واليونانية فهى بعيدة عن روح الإسلام..

obeikandl.com

تبارى أئمة التصوف فى وضع الأحاديث النبوية التى تدافع عن عقائد التصوف ومذاهبه، وكان الغزالى من أشهر هؤلاء فى كتابه «إحياء علوم الدين» الذى قال عنه النووى المحدث:

- «كاد الإحياء أن يكون قرآنا»..

فما كتبه الغزالى من الأحاديث الضعيفة، والموضوعة يقترب من الستمائة، ولما قام المحدث الحافظ العراقى(عبد الرحيم بن الحسين أبو الفضل، المتوفى 806هـ - 1404م) بتخريج أحاديث الإحياء للغزالى فى كتابه «المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من أخبار»، أثبت بطلان معظمها بمنهج المحدثين، وقال عن المئات منها إنه لا أصل له، أى أن الغزالى هو من وضعها تماشيا مع الموجة السائدة، ثم ملأ الغزالى إحياءه بالمنامات، والهواتف، ومزاعم من نوعية أن الله أوحى لبعض الصالحين، أو أوحى لبعض الأنبياء، وما هى إلا طريقة لسرد آرائه بزعم أنها وحى لبعض الصالحين، أو لبعض الأنبياء دون ذكر أسماء، أو تحديد الكتاب السماوى الذى نقل عنه، فيما عدا زعم الألوهية، والجلوس فى الحضرة الإلهية، ورؤية الله تعالى فى المنام، وفى اليقظة، وحلوله فيهم، أو اتحادهم به، وهو ما حاول الغزالى بثه، وتسويغه فى مواضع نثرها بذكاء بين سطور الإحياء، حتى أصبح الوحى الصوفى مستساغا فى العصور التالية، ولم ينكره أحد حتى السيوطى – تلميذ ابن تيمية الذى حارب الصوفية – زاعما أن النبى كان يسعى إليه ليسأله فى الحديث، والتفسير، وكأنهم يعلِّمون النبى الدين..

يقول زكى مبارك فى كتابه «الأخلاق عند الغزالى»:

- «ومن الشواهد على سذاجة هذا العصر(عصر الغزالى) التحدث بالمنامات، والأحلام، وهى شارة الارتياب فى الواقع، والإيمان بالخيال»..

وكان الغزالى يصر على غلطه، وحين ينبهه النقاد يرميهم بالغباوة، والحسد، والكذب، مؤكدا أنه لا يقول إلا الصحيح، وهو ما يقدح فى أخلاقه كعالم، وأقلها الثقة الزائدة بالنفس بما يمكن أن يكون غرورا قاتلا..

ومن هنا اعتمد التصوف السنى منهج الأحاديث التى كتبت بعد وفاة الرسول بأكثر من مائتى عام بما أرساه الشافعى فى كتابه الرسالة من تأويل الأمر الإلهى بطاعة الرسول بأنها طاعة الأحاديث(أى أحاديث)، فارتقى وضع أئمة الحديث الذين ماتوا فى القرن الثالث الهجرى من مقام الأشخاص المجتهدين إلى مقام المعصومين حيث أصبح نقدهم كفرا بواحا، وأصبحوا من ثوابت الدين، وصار صحيح البخارى مرادفا، وحتى منافسا للقرآن العظيم..

وعلاوة على الأحاديث الموضوعة درج الغزالى فى كتابه الإحياء على ذكر الأشعار دون ذكر قائلها، كما خلا الكتاب تماما من باب الجهاد الذى هو جزء من العقيدة الإسلامية الذى تحث عنها بإسهاب، خاصة إذا أشرف المسلمون على الخطر، ولم يأمنوا فى بلادهم، ولكنه كان قد دخل خلوته - مثل الكثير من أترابه - منكبا على أوزاره، ولا يعرف ما يجب عليه، هو وأمثاله من الدعوة للجهاد، فقد كان الغزالى يعبر عن الكثير من علماء عصره من تقاعس عن المواجهة، فى الوقت الذى كان بطرس الناسك مثلا يقضى ليله، ونهاره فى إعداد الخطب، وتحبير الرسائل لحث أوروبا على مهاجمة بلاد المسلمين، وامتلاكهم، فقام يبشر بالحروب الصليبية من فوق حماره حاملا صليبه فوق كتفه، يجوب الأنحاء فى فرنسا، وألمانيا يهيب بالجموع لإنقاذ بيت المقدس من أيدى المسلمين الكفار، حتى استطاعوا احتلال بيت المقدس سنة 492هـ - 1098م، وقتل 70 ألفا من المسلمين، بينما كان الغزالى، وأترابه مشغولون بإعداد المسلمين للدار الآخرة التى عجل بها الصليبيون من حيث لا يدرى المسلمون..

وقد تنوعوا من حيث علاقتهم بالفقه إلى:

-1 صوفية تخصصوا فى الفقه، ودافعوا عن التصوف، وربطوه بالفقه السنى مثل القشيرى (توفى465هـ - 1072م)، والغزالى (ت 505هـ - 1111م)، والشعرانى (ت 973هـ - 1565م)..

-2 فقهاء، وقضاة، ومحدثين، ومؤرخين عملوا فى مؤسسات صوفية، ودانوا بالتصوف بدرجات متفاوتة إتباعا، وتقليدا مثل الذهبى (ت 748هـ - 1347م)، والسبكى (ت 771هـ - 1369م)، وابن خلدون (ت 808هـ - 1405م)، والمقريزى (ت 845هـ - 1441م)، وابن حجر (ت 852هـ - 1448م)، وأبى المحاسن (ت 874هـ - 1469م)، والسيوطى (ت 911هـ - 1505م)..

-3 صوفية يكرهون الفقه السنى، ويؤمنون بعقائد الصوفية فى الاتحاد، والحلول، وادعاء الألوهية فى الصور الشعرية، والشطحات، والوجد، وغياب الوعى (الحال الصوفى)، وكتب فيهم الأتباع المدائح، والمناقب، وألفوا عنهم الكرامات، وهم أنواع:

- نوع تبحر فى التصوف النظرى الفلسفى، وقواعده مثل ابن الفارض (ت 632هـ - 1234م)، وابن عربى (ت 638هـ - 1240م)، وابن سبعين (ت 667هـ 1268م)، وابن عطاء الله السكندرى (709هـ - 1309م)، وكانوا قلة اختفت عندما عم الجهل، وتسيد التصوف العملى القائم على انتشار الطرق الصوفية، ودخول العوام فيها..

- نوع تخصص فى التصوف العملى بإنشاء الطرق الصوفية، وجمع الأتباع، وهم كبار الأولياء مثل

الرفاعى(ت 578هـ - 1182م)، والشاذلى(ت 656هـ - 1258م)، والبدوى(ت 675هـ - 1276م)، والدسوقى(ت 676هـ - 1277م)..

وقد نفى ابن عربى شبهة الاتحاد عند الصوفية فى كتابه «الجلالة» بقوله:

- «إذ ليس مرادهم من الاتحاد إلا شهود الوجود الحق الواحد المطلق، الذى الكل به موجود، فيتحد به الكل من حيث كون كل شىء موجدا به، معدوما بنفسه؛ لا من حيث أن له وجودا خاصا اتحد به، فإنه محال»..

ووضح ذلك فى «الفتوحات المكية» فقال:

- «ومن أعظم دليل على نفى الحلول، والاتحاد الذى يتوهمه بعضهم أن تعلم عقلا أن القمر ليس فيه من نور الشمس شىء، وأن الشمس ما انتقلت إليه بذاتها، وإنما كان القمر مجلاها، فكذلك العبد ليس فيه شىء من خالقه، ولا حل فيه»..

المستشرقون:

يقول ادوارد سعيد من كتابه «الاستشراق»:

- «الشرق جزء لا يتجزأ من الحضارة المادية، والثقافة الأوروبية، والاستشراق يعبر عن هذا الجانب ويمثله ثقافيا، بل وفكريا»..

المستشرقون المادحون للشرق، وتاريخه، وحضارته مثل «رينو» الذى ترجم «جغرافية أبى الفداء» فى أواسط القرن التاسع عشر، و«دوزى» الذى بعث قلمه قرون الحضارة العربية فى أسبانيا، و«سيدييو» أثبت «للفلكى والمهندس العربى أبى الوفاء» لقب «المكتشف» لما أسموه فى علم الهيئة «القاعدة الثانية لحركة القمر»، و«آسين بلاثيوس» الذى كشف المصادر العربية «للكوميديا الإلهية لدانتى»، كما اتسم إنتاج «جوستاف لوبون» بميزة العلم الخالص، والحقائق المحايدة، يقول مالك بن نبى فى كتابه «أثر المستشرقين»:

- «إن الجيل المسلم الذى انتسبُ إليه يدين إلى هؤلاء المستشرقين الغربيين بالوسيلة التى كانت بين يديه، لمواجهة مركب النقص الذى اعترى الضمير الإسلامى أمام ظاهرة الحضارة الغربية».. ويقول:

- «إن من أكثر البوادر دلالة على اتجاه مجتمع ما هو اتجاه أفكاره؛ فإما أن تكون متجهة إلى

الأمام(إلى المستقبل)، أو إلى الخلف(اتجاها متقهقرا)، اتجاها ملتفتا إلى الماضى بصورة مَرضية»..

يقول د.عبد الرحمن بدوى فى كتابه «تاريخ الإلحاد فى الإسلام»:

- «إن التراث العلمى الإسلامى ما زال الغموض يغزو أطرافه من كل جانب، لأن المستشرقين، وهم وحدهم الذين يقومون بشىء من الكشف عن مناحى الحياة الروحية فى الإسلام لم يبدأوا البحث فى تاريخ العلوم الطبيعية فى الإسلام إلا منذ عهد قريب جدا؛ لايكاد يتجاوز هذا القرن(القرن العشرين)، ولم يأخذ هذا البحث مظهرا جديا، ولم يظفر بعناية صحيحة إلا منذ سنة 1925م، وإنما كانوا يعنون فى القرن الماضى بالناحية الدينية، فالتاريخية، فاللغوية، فالفلسفية، فالصوفية على هذا الترتيب، أو ما يشبه»..

فلم نكن - كمسلمين - نعلم عن أعلام الحضارة الإسلامية شيئا، ولم نهتم، تماما كما كنا لا نعلم شيئا عن تاريخنا الضارب فى أعماق الزمن حتى كشفوه لنا، بل كنا نبدده إهمالا - بجهلنا - أيضا، فربما كنا معذورين فى الجهل، ولكننا لسنا معذورين فى الإهمال، فالتراث العلمى الإسلامى كانت كثرته فى كتب الشريعة، والدين، واللغة، والتاريخ، فانطمرت فيه كتب التراث العلمى التى اختفت أيضا بعد الغزوات الكثيرة التى منى بها المسلمون قبل انهيار الخلافة العباسية التى كانت آيلة للسقوط فى بغداد، كما اختفت الكتب التى اختصت به حرقا، ودفنا من أتباع الفقهاء، ورجال الدين بعد تكفير أصحابها؛ باعتبارها رجزا من عمل الشيطان يجب التخلص منه حتى يتسنى للأمة المنكوبة الالتفات فقط إلى رواياتهم، وهذيانهم بها حتى أصبحت دينا موازيا لا يمت كثيرا إلى القرآن، وقد أوردنا فى هذا الكتاب شيئا من سيرة أحدهم عندما جمع كتب ابن سينا فى بلدته لحرقها، أو دفنها، بتشجيع من الخليفة الحاكم وقتها، واحتفظ بها الأوروبيون فى أديرتهم، وكنائسهم بواسطة القُسس، والرهبان، وتركوا لنا كتب الشريعة، والدين التى طفحت بخرافات روايات امتلأت بالعنصرية، والتعصب، وكراهية الآخر، والهجوم على أصحاب الكتب العقلية، وتكفيرهم؛ فلم يكن الأوروبيون بحاجة إليها فعندهم منها الكثير، حتى جاء علماء النهضة الأوروبية فأزالوا عنها التراب، وطالعوها، ونسبوها لأنفسهم، أو – على الأقل – لم يذكروا أسماء أصحابها إلا محرفة، ولم يكشف عنها إلا المستشرقون فى العصر الحديث كما ذكر د.عبد الرحمن بدوى..

اكتشفت أوروبا الفكر الإسلامى فى مرحلتين من تاريخها، مرحلة القرون الوسطى قبل، وبعد «توماس الأكوينى»، وترجمته لإثراء ثقافتها مما كان له أكبر الأثر فى حركة النهضة أواخر القرن الخامس عشر الميلادى..

وبعد ذلك فى المرحلة الاستعمارية، ثم العصرية اكتشفت أوروبا الفكر الإسلامى مرة أخرى لا من أجل التعديل الثقافى لشعوب هذا الفكر، بل من أجل السيطرة السياسية عليهم، فقد عرفوا من قبل فضل هذه الشعوب، ومساهمتها فى الرصيد الحضارى الإنسانى عندما وقف عندهم التاريخ على مساحة كبيرة من الزمن فى أطرافهم المترامية عبر القارات الثلاث آسيا، وإفريقيا، وأوروبا، وكان سببا فى توقف سبل الحياة، والحركة فى بلادهم..

يقول مالك بن نبى:

- «لكى لا نكون مستعمَرين يجب أن نتخلص من القابلية للاستعمار».. وهو ما يطابق الآية:

-«إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» الرعد(11).. ويقول:

-«ولقد كان دور الشعوب الإسلامية أمام الزحف الاستعمارى خلال القرن الماضى، وحتى الربع الأول من هذا القرن دورا بطوليا فقط، ومن طبيعة هذا الدور أنه لا يلتفت إلى حل المشاكل التى مهدت للاستعمار، وتغلغله داخل البلاد».. ويقول:

- «إن الإسلام بما انطوى عليه من قوة روحية، كان للذين يتمسكون به درعا من أن تحطمهم الأيام، أو يذوبون فى بوتقة المستعمر؛ يتقمصون شخصيته»..

رغم تزايد الطبيعة الاستهلاكية فى المجتمع الإسلامى فقد أشاعوا بين المسلمين أن العلوم تكتسب حسب أهميتها كالأشياء النافعة، ولا ينبغى أن تطلب لذاتها، وبالتالى لم يكن هناك مجالا بالمرة لتطوير الثروة المعرفية فى النهاية إلى تكنولوجيا نافعة، فقد وئدت العلوم، والعلماء قبل أن يدرك أحدهم العلاقة بين العلم، والتكنولوجيا، إلا بعض الاستثناءات فى مجالى الطب، والكيمياء القديمة، وهو ما قضى نهائيا على منافسة الصناعات فى المدن الإسلامية لمثيلاتها فى المدن الغربية مثل صناعة الورق فى العراق، وسوريا، وشمال إفريقيا، والأندلس، وصناعة النسيج، والملبوسات، والسجاجيد، والأحذية فى القرن الرابع عشر الميلادى(الثامن الهجرى)، بالإضافة إلى التعدين السطحى لخامات الحديد، والنحاس، وصناعة السفن، وأشغال الحديد فى الأندلس، ورغم استمرار التفوق الذاتى الإسلامى فى بعض الصناعات القديمة مثل صناعة الزجاج، وأشغال الحديد لفترة ما بعد هذا التاريخ فإن كفة الغرب رجحت تماما بحلول القرن الثامن عشر الميلادى حيث تلاشت كل آثار التفوق، والندية تماما..

يقول د.م.أ.قاضى(Dr.M.A.Kazi) مستشار الرئيس الباكستانى للعلم، والتكنولوجيا »ضياء الحق« الذى قام بانقلاب عسكرى من أجل الجماعات الدينية ضد حكومة «ذو الفقار على بوتو»

المدنية سنة 1977م:

- «لا علم من أجل العلم فى الإسلام، ولا معرفة من أجل المعرفة، لكل شىء غاية، وهى استعمال المعرفة العلمية لصالح البشرية جمعاء»..

وهو نفس مقولة الجماعات الدينية المتطرفة هذه الأيام من أن الله تعالى سخر لنا الغرب ليصنع لنا ما نستهلكه من اختراعات..

ورغم اعتزازنا بعقلية ابن خلدون الثاقبة، والممحصة - مفكر العصور الوسطى غير التقليدى - إلا أنه لم يدرك كثيرا ما كان يحدث على الضفة المقابلة من البحر المتوسط، ولكنه يرصدها قائلا:

«بلغنا أن فى أرض الفرنجة على السواحل الشمالية للبحر يكثر الطلب على العلوم الفلسفية، وأن مبادئهم تنتعش من جديد، وحلقات دراستها منتشرة، وعدد طالبيها فى ازدياد».. ولم ير ابن خلدون فى هذا نذيرا بأنه تطور يحسب لهم، ويحسب علينا، وظل معارضا لدراسة الفلسفة، والكيمياء القديمة، ولعله كان فريسة لأفكار عصر الاضمحلال..

obeikandl.com